هيلجا شوبرت

اليوم الحالي

دفتر ساعات الحب

لقد استعنت في الصفحتين رقم 189 و223 بفقرات من مجموعتين قصصيتين من تأليفي صدرا عن دار نشر كتاب الجيب الألماني في عامي 1994 و1995مع إجراء بعض التغييرات، والعملان هما: "حديث شخص متوفى إلى المعزبين" من مجموعة "المختلفون فكريًا" و"يوم بارد" من مجموعة "القلب القافز".

لا تهتموا بأمر الغد،

فإن الغد يهتم بأمر نفسه،

يكفي كل يوم ما به من سوء.

إنجيل متى: 6- 34

"**كل** ثانية معك بمثابة حجر ألماس"، يقولها لي ديردن عندما أدخل غرفته في الصباح وأتجه نحو الفراش الذي بات حبيسه تحت الرعاية، ثم يعانقني.

نحن معًا منذ ثمانية وخمسين عامًا.

عاشقان كهلان.

ليسألني بعدها إذا ما كنا في الصباح أم المساء.

أذهب إلى الحمام وأملأ كوب تنظيف أسنانه بالماء الدافيء وبضع قطرات من سائل تنظيف الأسنان وأغسل طقم أسنانه وأصطحبه إليه في الغرفة حيث أجلس على حافة فراشه ليتنحى هو جانبًا بعناء شديد حتى أستريح أكثر في جلستي على المرتبة الوثيرة، أعطيه كوب سائل غسول الأسنان، كما أقدم له أيضًا كوب زبادي كبير فارغ كي يبصق فيه ماء الغسول.

أزيح غطاء فراشه للخلف وأفرغ الكيس السريري لقسطرة البول وأتحسس ما إذا كانت الحفاضة مبللة.

أحبه كثيرًا.

أدير الكرسي المتحرك ليقترب بشدة من سرير الرعاية وأرفع ديردن ببطء شديد كي يجلس عليه، إذ يدور كل شيء حوله. وأنا يجب أن أنتظر حتى ينتهي هذا.

أجلب له روب الحمام خاصته الرقيق ذا اللون الأزرق الداكن، وأساعده كي يمد ذراعه الأيمن في الكم ثم ألف الروب حول ظهره، وإلا لن يجد الذراع الأيسر سبيله للكم الآخر.

يثبّت هو بعد ذلك المكابح في الكرسي المتحرك. لابد وأن يصبح هذا بمثابة الإجراء الروتيني وإلا سيتدحرج الكرسي المتحرك بعيدًا عندما يرغب في الانتقال إليه من حافة السرير.

لذا أظل أنا واقفة.

فيقول: "لا، أتركيني. لا تمسكي بي وإلا سأفقد التوازن."

ثم يتكيء على مساند الكرسي المتحرك ويستدير في خطوات صغيرة وهو يئن ليستقر في جلسته على وسادة الكرسي المتحرك.

ثم أدفعه بالكرسي نحو مائدة طعام الإفطار في الحديقة الشتوية بعد أن أكون قد أعددت لنا المائدة من قبل.

ينظم ديردن طبق إفطاره كل يوم بنفس الطريقة: حيث يضع ثمرة أفوكادو وقد اغترفها بالملعقة لتتخذ شكل البيضة. وثمرة يوسفي وبيضة مسلوقة مقطعة وخبز مدهون بالزبد والأعشاب معهم قهوة مذاب فيها ثلاثة أقراص تحلية وحليب دافيء، بالإضافة إلى عصير طماطم بارد بالزنجبيل ليتناول به أقراص الأدوية الثمانية لإدرار البول وانتظام ضربات القلب وتلك المضادة لكل أنواع الالتهابات.

وقد نصحني أخصائي بحوث النوم قبل أربع سنوات قائلاً: لو كنت في وضعك لأعطيت زوجك المزيد من قطرات المورفين، فهذه لم تعد حياة تلك التي يعيشها.

أما هو فكان عازمًا على الانتحار على الفور إذا أصاب زوجته أي شيء قد يؤدي لوفاتها. إذ يرى أن حياته دونها بلا أي معنى.

فما كان علي سوى أن ألفت انتباهه لهذا التناقض.

لكن هذا لم يكن تناقضًا بالنسبة له وأمر لا يقارن بوضعي.

يحب ديردن المشروبات الباردة، كما يحب الجلوس في الشمس ليشاهد العصافير وهي تبني عشها والخيول إلى جواره، والمهر الصغيرالذي أنجبوه رغم أن الفرسة الأم كادت تقضي نحبها أثناء الولادة، والأوز البري فوقنا في مثلثه الرائع.

يريدني أن أجلس في الشمس بجواره.

وفي حالة المزاج الجيد يرغب في توجيه كلمة طيبة لي، فيظل جالسًا عند المدخل حتى ألحق به ويقول:

ها هي ذا.

يقول ديردن لم أعد قادرًا على أي شي، بينما ألفت كتبًا من قبل. ورسمت أكثر من 1300 صورة. أكثر من 1300 لوحة زيتية. ولم أرسم سوى اثنتين فقط في العام الماضي.

أرد قائلة: نعم لوحات رائعة.

وهذا العام لم أعد قادرًا على الرسم هذا العام. كل الألوان الزيتية جفت داخل الأنابيب.

لقد رسمت في العام الماضي مائة لوحة داخل هذه اللوحة الواحدة في الواقع، حيث كنت ترسم اللوحة فوق الأخرى: المنظر من سرير الرعاية صوب الخارج نحو زهور الماجنوليا الكبيرة. وأمام الفراش فوق حافة النافذة كلا التمثالين من أعمال بارلاخ لعازف الناي وقاريء الكتاب، ثم الغراب الخشبي الكبير.

ثم حل فصل الصيف فسقطت زهور الماجنوليا كبيرة الحجم، وبعده جاء الخريف فسقطت أوراق شجرة الماجنوليا، ثم جاء فصل الشتاء وغطى الجليد أفرع الشجرة، ثم ذاب الجليد فأصبحت شجرة الماجنوليا عارية من الأوراق. أي أنك تتبعت بلوحتك فصول السنة من خلال طبقات زيتية كثيرة فوق بعضها.

ظل ديردن قريبًا مني طوال الحياة البشرية. حيث التقيته صدفة أول مرة قبل 66 عامًا. كنت وقتها فتاة في السابعة عشرة من العمر وليس لدي أية خبرة فيما يخص الرجال.

حينما كنت في أحد معسكرات الخيام بعد اجتياز الصف الأول الثانوي قبلني أحد الصبية في فمي. كنا أربعة أفراد خرجنا للتنزه على الشاطيء بعد أن تناولنا الأيس كريم، وإذا به يلفني فجأة وهو يمسك بكتفي لأواجهه ويبتسم لي متسائلاً، لازلت أذكر اسمه حتى اليوم. كان في مثل سني وكان يشبهني كثيرًا. كم كنت أتمنى أخًا مثله. ولم نعد نتواعد بعدها مرة أخرى.

بينما اتسم ديردن منذ البداية بالغموض بالنسبة لي. كان وقتها في الثلاثين من عمره ويعمل بالهيئة المعاونة بمعهد علم النفس بمدينة برلين وتعين عليه آنذاك شأنه شأن باقي زملائه إجراء مقابلات القبول لنا نحن طلاب الثانوية الراغبين في دراسة علم النفس. وكنت من بين الطلاب الذين تم توجيههم إليه. بدا وكأنه يشعر بالملل كما رأيته متعجرفًا بعض الشيء. لم أحسم رأيي بشأن مجال الدراسة الذي أرغب به حتى حصلت على شهادة

الثانوية العامة لأن كل شيء كان يسبب لي متعة ما: الرياضيات على أية حال، والكيمياء أيضًا (فلتأتي يا هيلجا إلى السبورة وتشرحي المعادلة الكيميائية للفصل، فأنت قادرة على التفكير كيميائيًا)، كما فكرت في البيولوجيا ثم في فقه اللغة الألمانية وآدابها، حيث كان يُطلب مني قراءة مشاهد الحب من المسرحيات في حوار مع المدرس أثناء حصة اللغة الألمانية، لابد وأن هذا كان ليسبب الريبة اليوم.

لقد كانت تربيتي صارمة للغاية، لذا فكرت في النهاية في علم النفس أملاً في أن أكتسب من خلال دراسة علم النفس المزيد من المعارف الإنسانية أكثر من تلك التي يمكن اكتسابها بقراءة أعمال دستيوفسكي أو الاستماع إلى المرافعات والمداولات في المحاكم.

هكذا أجبت على سؤال دريردن عن كيفية اختياري لهذه الرغبة في الدراسة تحديدًا.

إنتابني حينها الشعور أنه كان يسعى جاهدًا من البداية ليزيل عني هذا الوهم الذي يتملكني ومفاده أن علم النفس يمكن أن يكون مجال دراسة ممتع.

تحدث عن تشريح النظام العصبي المركزي وإجراءات امتحانات إحصائية، واختبارات القدرة على التركيز ونصحني بالعمل في مهنة لم أتعلمها في أحد المصانع لمدة عام قبل الدراسة الجامعية حتى أكون واقعية وأحسم أمري.

وقال لي في نهاية اللقاء: فلتبتعدي عن فكرة قضاء عام في الحراسة الليلية بإحدى العيادات النفسية، بل حاولي بدلاً من ذلك التواصل مع أشخاص لا يقرأون باستمرار. ستتسلمين موافقة على التسجيل الأولي للعام الدراسي القادم. إذ لابد لنا من قبولك نظرًا لدرجاتك الجيدة.

كان شعره أسود داكن وعيناه داكنتين وله شارب، يرتدي مئزر أبيض وحذاء بنعل كريب لابد وأنه اشتراه من برلين الغربية، لأن الجدار شُيد بعد لقاءنا هذا بأربع سنوات.

كنت قد خططت أن أتوجه إلى الغرب بمجرد بلوغي الثامنة عشر وأن أستكمل دراستي هناك. ولكن كان سيتعين علي تأخير دخول امتحان الثانوية العامة في الغرب لأننا في الشرق كنا نؤدي الامتحان بعد إثني

عشرة عامًا من الدراسة بينما يمكن لطالبة جامعية من الشرق في إحدى الجامعات بالغرب أن تغير حسب الفصل الدراسي المناسب. لذا كنت أرغب في توفير عام من عمري.

كل هذه الخطط أفسدها علي ذلك المعيد، هكذا فكرت وأنا حانقة.

عملت بعدها بالفعل لمدة عام على سير الإنتاج بأحد المصانع، وكنت أشارك ثلاثمائة امرأة أخرى داخل صالة التركيب بالمصنع على آلة لحام دقيقة في لحام هوائيات استقبال التلفاز، ثم كلفتني المشرفة بالرقابة والتدقيق النهائي حتى أصبحت أتحمل أعباء أقل وأحل محل من يتغيب.

بعد ما يُعرف بعام الممارسة العملية أصبح من حقي البدء بالدراسة أخيرًا. هكذا حضرت محاضرات لدى ديردن ونجحت في امتحاناته.

قالت لي طالبة أكبر مني ذات مرة أنه يستحضر أجواء الكاتب المسرحي ستريندبيرج. وأكدت أن إحدى طالبات الدكتوراه أفشت لها هذا السر.

كنت في غضون ذلك قد تزوجت رسامًا وفنان جرافيك يولي قيمة كبيرة لمظهري الخارجي. لأن زوجته السابقة كانت طالبة تدرس أزياء، بينما كانت المرأة التي تشاركني به حسب ما اكتشفت لاحقًا: ممثلة وراقصة وموديل رسم عارية. حتى أنني نزولا على رغبته صبغت ملابسي باللون الأسود، وشعري بلون الحناء الأحمر وارتديت جوارب قرمزية اللون اشتريتها من برلين الغربية بحساب سعر صرف العملة 1: 6.

يتذكر ديردن هذه الجوارب القرمزية حتى اليوم كما يتذكر أن الحديث دار حولي ذات يوم في مقصف الجامعة أثناء تناول طعام الغداء، وكانت خلاصة القول أنني امرأة تصلح للزواج وأنني أعطي بشدة الانطباع بأنني متزوجة لأني لا أغازل أحدًا. كما أتذكر أنا موقفًا مربكًا حدث بعد أربع سنوات من الدراسة الجامعية: كنت قادمة من مكتبة الجامعة ومعطفي معلق في الردهة وفي نفس

اللحظة التي كنت أتناول فيها معطفي من على الشماعة جاء ديردن الذي كان يتحدث إلى شخص آخر فتحرك خطوتين نحوي وسألني إذا كان بوسعه مساعدتي في ارتداء المعطف.

وافقت على مساعدته ولاحظت كيف لف ذراعيه حولي دون أن يمسني وكيف دثرني بمعطفي بكل حرص وعناية. كانت تلك لفتة في غاية الرقة والاحترام وتنم عن الشهامة. دون أن ينطق بكلمة واحدة ودون إلحاح.

كان الجدار قد شُيد في برلين آنذاك. كان هو لديه طفلان صبي وفتاة، وأنا عندي إبن صغير.

في العام التالي، وهو العام الأخير في دراستي، أشرف ديردن على بحث تخرجي، بمنتهى الموضوعية. وعندما بدأت العمل شاركت في مؤتمر في مدينة دريسدن، حيث انضم إلى على طاولة ليجلس هو وزميل له بعد أن انتهى من محاضرته.

سألني إذا كنت أنوي الحضور إلى الحفل الراقص المذكور في البرنامج. نعم، كنت أنوي ذلك.

طلب مراقصتي، وكان الأمر فجأة غاية في السلاسة. رغم أننا لم نكن قد رقصنا معًا من قبل أبدًا. لم يكن متعجرفًا أو ساخرًا وليس متكلفًا، بل بديهي للغاية ومألوف لي تمامًا.

قال لي أنني أتمتع بتركيبة لدنة. كان ذلك بعد مرور سبعة أعوام على مقابلة القبول بالجامعة.

ذهبنا ذاك المساء في نزهة على نهر الإلبه، حيث أخذنا نسير في الماء أسفل الجسور، ونحكي لبعضنا بعض عن حياتنا، شخصان بالغان، متزوجان، كان هو في السابعة والثلاثين وأنا في الرابعة والعشرين. وأدركنا أن الأمور بيننا ستتخذ منحى الجدية. ولكننا أبقينا مسافة تباعد فيما بيننا تلك الليلة. كنت بذلك قد فتحت بوابة لنفسي تفضي إلى عالم يسبق حياتي الخاصة: كان قد عاصر عهد النازية وهو صبي مدرك، وكان جنديًا، ثم أسير حرب لدى الأمريكيين في منجم ببلجيكا، وفقد والديه، حيث لقيا حتفهما أثناء فرارهما، وكان هو الأصغر من بين أبنائهما الأربعة، الذي سُمح له بكل شيء والذي حظي بالحب.

بوابة نحو عالمه الذي دعاني إليه، ولا يزال يدعوني إليه حتى اليوم.